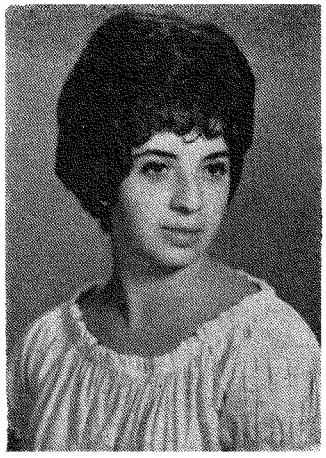

الطريق المسدودة

قصة بقلم سمر العطار

وحوط خصرها النحيل بيديه القويتين .. كانتا حلوتين يكسوهما شعر كثيف فاحم ، وقد لوحتهما الشمس . وذابت بين يديه كعصفور صغير .. كانت تحب رائحته ، رائحة الجندي الذي عاد من الجبهة .. تحب زيه العسكري ، والنجمة الصغيرة التي تلمع على كتفه .. وراحت تفك ازرار قميصه ، وتتحسس بشفتيها المتشققتين صدره الوردي .

ورفع رأسها بيده ، وراح ينظر في عينيها السوداوين ، ويتحسس باصبعه النحيلة شفتيها المتشققتين ..

ـ لم تكونا هكذا عندما رحلت .

ووشوشها بأسى .

وكادت الدموع تفر من عينيها .. ربما لم يعد يحب شفتيها الصغيرتين .. لم يعد يحب رائحتها التي تشبه رائحة الحشائش في الربيع ..

والتصقت بصدره كطفلة صغيرة .. كانت تحب رائحته ، رائحة الجندي فيه .. وأمال رأسه ، وراح يدغدغ نحرها بشفتيه الدافئتين ..

ـ منذ عام وأنا وحيدة يا احمد .

واختنقت الكلمات في حلقها ..

كان يلعق أذنيها الصغيرتين ، ويتمتم لاهثا :

ـ لا .. لن اعود .. لن اعود للجبهة .

ـ أحقا ما تقول ؟..

وتمسكت بياقة قميصه .. وراحت تشدها كالصغار ..

ـ أجل لن أعود .

وقفز صبي صغير من الفراش . كان نائما .. لعل ملاكا وشوشه أن بابا هنا ..

ـ أعطني نجمة يا بابا .. أريد ان أكون ضابطا ..

تمتم الصبي .. فحملته امه .. كانت تشعر بحزن عميق يتسلل خفية الى صدرها ..

ـ أتدري يا عامر ما الذي خبأ لك بابا في الصندوق الخشبي ؟ هدية لعيد ميلادك !.. انها بدلة ضابط صغير، بدلة توشيها النجوم ..

وضحك الصبي وراح يصفق بيديه المكتنزتين .. وقفز الى الارض بخفة وحذر . كان عاري القدمين .. واندفع الى الصندوق عله يسرق النجوم ، ويعلقها على كتفه ، ويروح يزهو بها أمام اخته الصغيرة ..

كان احمد يغير ثيابه ويهم بالرحيل ..

ـ هل انت ذاهب ؟..

واندفعت اليه زوجته الصغيرة ، وتمسكت بياقة معطفه ..

ـ لم أر زياد منذ سنين .. ولكن لماذا تخافين ؟.. ألم أقل لك اني لن اعود للجبهة وسأبقى هنا الى جانب الصغار ؟..

وضمها الى صدره .. كانت تنشج بالبكاء ..

ـ أنا جد شقية يا أحمد .. جد شقية ..

ووشوشها :

ـ أتدرين اني طلبت اجازة ؟.. وغدا نضيع أنا وأنت على الشاطىء البعيد نتمرغ في رماله ، نجمع الاصداف الحلوة وعرائس الشطآن التائهة .. سأعلمك السباحة ، وسنذهب للضفة الثانية فنرتمي على الشاطىء الاخضر لاهثين متعبين ، وسألهو بخصلات شعرك الحلوة ، وأمسح بشفتي المرتعشتين قطرات الماء التي تدغدغ نحرك.

كانت وحيدة مع الصغيرين .. وفي ليالي الشتاء الباردة كانت تنتظر زوجها خلف الشباك الاخضر ، والحطب يطقطق في الموقد .. والصغيران يلعبان لاهيين. وعندما يعصف بها الشوق كانت تبلل رسائله الرقيقة بدمعها وتروح تحملق في الظلام بلا معنى عله يلوح لها من بعيد .. من وراء الغيم .. كانت رائحته .. رائحة الجندي تذيبها .. لكن بيتها كان فارغا .. كان قبرا مبهما لا رائحة فيه ..

وضاع في دهاليز البيت .. وعندما لحقت به كان قد اختفى .

لم ير صديقه زياد منذ عامين . لقد تخرجا معا من الكلية العسكرية ، وأمضيا سنوات طويلة على الحدود نائمين في خندق صغير ، ويداهما على الزناد تترقبان.. كانت المستعمرات اليهودية تلوح لهما من بعيد .. وفي ليلة حالكة السواد كانا مختبئين في الخندق ، ولمحا من بعيد قاربا يشق الماء ويقترب من الشاطىء ..

وعلى طول خط الحدود كان الرصاص يلعلع في الفضاء .. وفر الزورق وانطفأت المصابيح في المستعمرات البعيدة ، وسادت فترة صمت رهيبة .. كانت اصبع احمد على الزناد .. وربت أحدهم على كتفه ، وصاح في وجهه : لماذا تطلق النار ؟..

كانت المستعمرات تحترق من بعيد .. ولمح زياد دموعا في عينيه ولم يجرؤ على ان يسأله ..

كانت القرية ايضا تحترق عندما حملته امه .. ومر احد الفلاحين بعربته الخشبية العتيقة التي يجرها حصان لاهث .. فتمسكت أمه الصغيرة بدولابها ورمته هو فوق الخضار العفنة .. وعندما حاولت أن تصعد اليه زلت قدمها ، وابتلعتها النيران .. ونشأ أحمد غريبا لا يعرف له أما ولا وطنا .. قتل أبوه في معركة مع اليهود .. وبقي هو وحيدا ينتقل من قرية الى قرية كغجري مهاجر .. لكن الفلاح الذي انتشله شعر بغربته وصيره له ابنا ..

كان الاطفال في المدرسة يشيرون اليه بأصابعهم الصغيرة ويهمسون : انه فلسطيني .. ولم يكن يدري ماذا تعني هذه الكلمة .. وعندما انتسب للكلية العسكرية كان يسمع بعضهم يقول : أنه فلسطيني .. وفي كل العهود التي مرت كان الاشخاص يتغيرون لكنهم يرددون الكلمة نفسها .. ربما لم يجرؤوا على ان يقولوا في وجهه : لقد خلّف قريته الصغيرة دون مقاومة ..

كان يحس بمهانته وبأنه غريب غريب .. وتذكر ما قال له صديقه في احدى الامسيات الحزينة : لا شك انك سعيد يا أحمد .. أن الآخرين يحسدونك على مكانتك الاجتماعية ..

وفكر بأسى .. دائما الاخرون.. الاخرون يحسدونه لانه بلا وطن !..

ـ أتبكي يا أحمد ؟.. وما بال اصبعك على الزناد ؟

وشوشه زياد ..

وضاعت عيناه في المستعمرة التي تحترق ..

ـ آه !.. ما زالت تحترق .. كانوا يقولون لي : خذ راتبك في آخر الشهر ولا تفكر بشيء .. وحاولت أن أكون لا مباليا لكنني لم أستطع يا صديقي .. بالامس قرأت في صحيفة يومية ان منظمة الامم المتحدة بحاجة الى مترجمين .. وفكرت : لماذا لا أرحل ؟.. لماذا لا أهرب من العيون التي تلاحقني أينما كنت وتشير الي ، ولعلها تهزأ بي وتجأر في وجهي : أنت فلسطيني .. أنت فلسطيني .. كنت واثقا من نفسي .. واثقا من نجاحي ، لكنهم ردوا لي طلبي .. وعلى طرفه كتبوا بضع كلمات.. أتدري يا زياد انهم لم يرسلوا لي حتى رسالة بل كتبوا على طرف الطلب : نعتذر .. كأنهم كانوا يقولون : انت بلا وطن .. ووطنك هذا الذي تدعيه لا وجود له في الامم المتحدة ..

كان يحس بأن زياد يفهمه ، وكان هو بحاجة لمن يفهمه لا لمن يشفق عليه .

وضاعت دمشق في عينيه ولم يعد يرى شيئا .. كان يقطع الطريق ذاهلا عن كل شيء .. ولعله كان يتساءل في سره : هل تغير زياد ؟.. كانا معا في الخندق على الحدود .. كانا معا في أيلول عندما سمعا ان سورية ضاعت من جديد .. وان ضباطا صغارا يمجدون الكيان المصطنع يتحكمون في مقاديرها .. كانت زوارق الصيد الاسرائيلية تروح وتغدو أمام ناظريهما .. وضغط أحمد باصبعه على الزناد .. فارتعش ماء البحيرة ، وترنحت الزوارق سكرى ثم غرقت وضاعت عن عينيه .. واندفع ضابط صغير اليه .. وراح يهزه بعنف ويجأر في وجهه : لماذا تطلق النار ؟..

كان يعاني حمى شديدة .. وعاد الضابط يهزه بعنف : هل جننت يا أحمد ؟..

ـ لا !.. القوارب .. لقد غرقت .. القوارب ..

وضحك الضابط ساخرا : أنت تحلم يا أحمد .. أنت تتوهم .. وسمع بعض الصغار يهمسون : أنه فلسطيني ..

وفي تلك الامسية أبعدوه عن الجبهة لانه لم يكن يمجد الكيان المصطنع وذنبه الوحيد انه خلق فلسطينيا.. وقبل ان يغادر الحدود نظر في عيني زياد .. كان يعرف ان القضية واحدة مهما تجزأت .. وكان هذا هو أمله الوحيد ..

وراح يغذ السير تائها في شوارع المدينة .. كان يخاف ان يرى صديقه ، اصبح كالبقية ، وانه تخاذل عن النضال في سبيل القضية .. لكنه كان يطرد هذه الافكار السود من مخيلته .. ان الطريق لن تغدو مسدودة ابدا.. والصديق لن يقتل الصديق .. والعربي لن يقتل العربي مهما تجزأت القضية ، ومهما تفرعت السبل ..

وكاد يدخل الخيمة الصغيرة المرمية في الساحة البعيدة لكن أحدهم من بعيد جأر في وجهه : قف ..

كان أحمد يفكر بقضيته .. وبأن العربي لا يقتل العربي مهما تجزأت القضية .. ولم يسمع النداء ..

صدر حديثا :

سلطنة الظلام في مسقط وعمان

رواية

بقلم

عوني مصطفى

الثمن ١٥٠ ق. ل.

دار الاداب

وعلى باب الخيمة تساقط كمشمشة عجوز .. وشقرة عائمة على جبينه تصيره نبيا ..

ومن بعيد كانت البساتين تحترق .. وفي مسمعيه تصر عربة خشبية عتيقة .. عربة يقودها فلاح عجوز .. وبين الخضار العفنة كان ثمة صبي صغير ينشج بالبكاء ..

كان زياد قرب الخيمة منبطحا على الارض يعطي تعاليمه للجنود .. ولعله لمح الشقرة العائمة على جبين رفيقه .. فاقترب منه .. كانت ثمة دمعة جامدة في عينيه وحيط من الدم قد جمد على جبينه ..

وشهق زياد .. لم يكن يصدق ان يرى رفيقه ميتا على باب خيمته .. لقد قتله أحد الجنود .. وعندما راح يجر جثة احمد الى الخيمة أطلقوا عليه الرصاص .. كانوا مختبئين في البساتين البعيدة .. ولعلهم لمحوا زيه العسكري ..

كان ثمة صبي صغير يجر عربة خشبية في آخر الشارع وينادي بصوته الحزين : الاسكا .. الاسكا .. وعندما سمع الرصاص ترك العربة ، وراح يباري الريح .. واندفعت العربة الصغيرة في جريها الى الساحة البعيدة ثم توقفت عند الخيمة .. عند بقعة من الدم بعد ان مزقها الرصاص ..

لقد غدت الطريق مسدودة .. سدتها عربة بائع صغير يبيع الاسكا .. غدت مسدودة .. وراح الذباب يحوم حول العربة ، ويحك أطرافه الصغيرة المنتصبة بقطع الاسكا المتناثرة ..

ومر أحد الجنود .. ولمح قطعة نقود صغيرة تلمع قرب العربة .. ربما نسيها الصغير في داخل العربة عندما باع آخر جندي في الساحة .. وصفر الجندي .. وتناول قطعة النقود وخبأها في جيبه .. كانت خمسة قروش فقط .. وعلى وجه النسر جمدت نقطة من الدم ..

عندما حملوا أحمد على محفة الى بيته كانت زوجته الصغيرة تنتظره خلف الشباك الاخضر وتفكر بأنه لن يعود للجبهة .. كانت تحلم بالشاطىء .. بزندي أحمد يذيبانها ، بصدره الوردي .. بشفتيه الدافئتين على نحرها ، تحلم بالحشائش الخضر المرمية على الشطآن .. وبالاصداف الصغيرة الملونة ..

وفي زاوية الغرفة كان عامر غارقا في ثياب العيد .. في بزته العسكرية الصغيرة والنجوم تلمع على كتفه البض الطري وثمة شقرة عائمة على جبينه ..

ربما كان يحلم ببندقية حلوة صغيرة .. وهناك على المائدة العتيقة كانت تحترق ثلاث شمعات ببطء .. كان عمره بعمر هذه الشموع الحلوة .. لكن الشمع كان يذوب نقطة نقطة .. وأبوه لم يأت بعد .. لعله نسي يوم الميلاد .. لعله نسي ..

وعندما حملوا جثة أبيه ووضعوها في ركن قصي من الغرفة كانت الشموع تنطفىء وسمع أحدهم يهمس بخفوت : كان فلسطينيا ..

دمشق

سمر العطار

صدر حديثا

عاشق من افريقيا

مجموعة شعرية جديدة يعود بها الشاعر المبدع

محمد الفيتوري

الى قرائه الكثيرين بعد غياب بضعة اعوام

نكهة جديدة في اسلوب متطور

الثمن ليرتان لبنانيتان

منشورات دار الاداب